

بين في المخياليين اللبناني والسوري

الذي لا ينفر (في رأيه) من يرغب في الانضمام إلى الحملة لأنه يعتقد أن العلمانية والإلحاد سواء (8).

د. كانت الانتفاضة السورية هي القشة التي قصمت ظهر البعير العلماني اللبناني (في المرحلة الراهنة على أقل تقدير). فقد بذل أنصار النظام السوري داخل حملة إسقاط النظام الطائفي جهداً ملحوظاً لاستبعاد أية إشارة إلى تلك الانتفاضة، فيما صمّم «خصوفهم» («رفاقهم») على اعتبار الحملة جزءاً لا يتجزأ من المسعى الشعبي العربي لنيل الحرية والكرامة.

ا - ب. فلسطين في المخيال اللبناني في ضوء الانتفاضات العربية

لم تكن القضية الفلسطينية، شأنها في ذلك شأن قضية سلاح المقاومة والمحمكة الدولية الخاضعة باغتتيال رفيع الحري، جزءاً من أي نقاش جذي ضمن أطر حملة إسقاط النظام الطائفي في لبنان. ولعلنا نتذكر، بالمناسبة، أن الانتفاضات العربية في 2011 لم تول أي مسألة تتعدى إسقاط الحكم الطغياني المحلي كبير اهتمام. بل إننا، رغم استثناءات وأعلام وشعارات قليلة (تثبت القاعدة)، كانت تصر على أن تحرير فلسطين لا يكون إلا بعد «تحرير البلدان العربية من الطغيان» وأن «فلسطين لا يحزرها إلا العرب الأحرار».

بيد أن الناشطين العلمانيين اللبنانيين حرصوا على أن يتحدثوا، صراحة أو مواربة، عن الفلسطينيين داخل لبنان تحديداً، الذين يعانون ما سناه جليبر الأشقر «أبارتهابداً لبنانياً». والمعروف أن فلسطيني لبنان، خلافاً للعامل الأجانب الآخرين فيه، منعوا، حتى بموجب القانون المعدل في صيف 2010، من ممارسة عشرات المهن (كالتطب والهندسة)، ومن امتلاك العقارات أو توريثها (9). وقد اتخذت هذه الإجراءات التمييزية بذريعة الخوف من «الوطنية» الذي زعم أنه يُخل بالتوازن الطائفي الهش لمصلحة المسلمين (الشنة)، مع أن أحداً لم يطالب بتجنيس فلسطيني لبنان؛ وفيما جرى التلميح إلى هؤلاء في «إعلان المبادئ» (وهو تعميم داخلي صادر عن حملة إسقاط النظام الطائفي في 2011/4/23) عبر الحديث عن «دولة حقوق الإنسان والمساواة... لجميع سكانها» وعن «دولة تقوم على العدالة الاجتماعية... جميع مواطنيها والمقيمين فيها»، فقد كانت وثيقة الجناح المنشق الأكثر جذرية (والصفتان لا تحملان أي حكم قيمة) أشد وضوحاً في تسميتهم بالاسم.

كذلك إن المزاج الثوري الذي أشاعته الانتفاضات العربية شجع آلاف اللبنانيين على مشاركة عشرات آلاف فلسطيني لبنان «مسيرة العودة» (الرمزية) إلى فلسطين المحتلة في الربيع الماضي، حيث تصدى لهم جنود الاحتلال الإسرائيلي عند الحدود مع لبنان، فقتل وجرح العشرات بدم بارد. معارضو النظام السوري اعتبروا تلك المسيرة، التي تراكفت مع مسيرة أخرى عبر الحدود السورية مع الكيان الصهيوني وسبب الرد الوحشي الإسرائيلي هناك سقوط متظاهرين آخرين بين شهيد وجريح، محاولة من طرف ذلك النظام لحزف الأثر عن أعمال القمع التي يمارسها في الداخل السوري.

2. القسم الثاني: سوريا - الانتفاضات العربية وفلسطين

أ. الانتفاضات العربية في المخيال السوري حين اندلعت انتفاضات تونس ومصر، شعر آلاف السوريين أن دورهم قد حان لإسقاط نظامهم. «إجك الدور يا دكتور» كان أحد شعارات الخرافيتي المشهورة على جدران سوريا. في البدء (أذار - نيسان 2011) اكتفى أكثر المتظاهرين السلميين بالمطالبة بإصلاحات فورية تُرفع الدلّ اليومي عن كاهلهم. لكن، بعد أن تعامل النظام معهم بوحشية فائقة، أخذوا تدريجاً ينادون بإسقاطه، أسوة بما فعله المنتفضون التوانسة والمصريون من قبل. إلا أن أحد الاتهامات التي وُجّهت إليهم هو أن إسقاط النظام سيضعف المقاومة في لبنان وفلسطين - وهو اتهام لم يسبق أن واجهه المنتفضون في أي من البلدان المنتفضة الأخرى بسبب مواقف رؤسائهم المؤيدة للسياسة الأميركية.

في البدء كان دحض هذه التهمة أمراً يسيراً؛ فلم يُعرف عن المتظاهرين السوريين أنهم دعموا الهيمنة الإسرائيلية أو الأميركية في أي وقت من الأوقات وبأي شكل من الأشكال، بل كانت الانتفاضة السورية تُعتبر لدى غالبية الناس هبة أصيلة على نظام مارس عقوداً من

الاضطهاد باسم الشعارات القومية والثورية. إلا أن دعم حزب الله وإيران لنظام الأسد، إعلامياً وسياسياً، دفع بعض المتظاهرين السوريين (ضمن «المجلس الوطني» لا ضمن إطار «هيئة التنسيق الوطنية» مثلاً) إلى إدانة الحزب وإيران. وقد أجتت غضبهم شائعات تفيد بصلوع الحزب وإيران في أعمال القنص والتعذيب، وهو ما نفاه الحزب بشدة على لسان أمينه العام.

في المقابل، رأى أنصار النظام، السوريون واللبنانيون، أن الانتفاضات العربية (أو «الربيع العربي» بين مزدوجين) كما يسّمونه استهزاءً دليل قاطع على المؤامرة على نظام الأسد «المعادي للسياسات الإمبريالية». ففي النهاية، كما يصرحون أو يلمحون، ألم يكن النظام «الإسلامي المعتدل» في تونس الجديدة هو الذي استضاف مؤتمر «أصدقاء سوريا» (الأول) ضد النظام «العلماني» في سوريا؟ أوليس «شواؤا» الناتو المسلمون المعتدلون» في ليبيا الجديدة هم الذين «بدرّيون» أصولي تنظيم القاعدة و«العصابات الإرهابية المسلحة» في سوريا؟ أوليس نبيل العربي، الأمين العام للجامعة العربية وخصم حسني مبارك في مصر الجديدة، هو الذي يقود الدبلوماسية العربية ضد النظام «المانع»؟

ولكي تزداد الصورة تعقيداً، أمعن قسم من المعارضة السورية، وتحديدًا المجلس الوطني السوري (م. و. س.)، في تنسيق سياساته مع تركيا وقطر وفرنسا والسعودية والولايات المتحدة. واتخذ كذلك مواقف أضعفت من صورة المعارضة في أعين من أيدها أول اندلاع الانتفاضة، من قبيل:

الدعوة إلى تدخل عسكري أجنبي مباشر. صحيح أن رد النظام على الانتفاضة أدى، خلال عام واحد، إلى سقوط أكثر من 8000 قتيل، وإلى آلاف المعوقين، وعشرات آلاف المهجرين. وصحيح أن الحبل على الجرار، كما يبدو. لكن كثيراً من السوريين لا يزالون يرفضون التدخل الأجنبي، كذلك فإنهم يخشون من تكرار السيناريو الليبي في بلادهم (ما بين 40 إلى 50 ألف قتيل خلال مدة وجيزة جراء قصف الناتو)، كي لا نقول السيناريو العراقي الأقرب إلى الجحيم؛ هذا فضلاً عما سيجزه التدخل العسكري الأجنبي من ويلات على العمران (وبخاصة داخل المدن)، ومن تعريض البلاد لنهب الشركات الأجنبية بعد «التحرير».

المطالبة بتسليح الانتفاضة (بدلاً، مثلاً، من تصعيد النضال الشعبي اللاعنفي على طريق العصيان المدني)، ومن دون حساب ما قد يجزه ذلك من خسائر بشرية إضافية لكون النظام أقوى تسلحاً من المعارضة بما لا يقاس.

بروز حالات مذهبية بشعة داخل هذه المعارضة، إما عبر التصريحات (كما فعل النائب السابق مأمون الحمصي حين هدد بجعل سوريا مقبرة للعلويين) إن لم يوفقوا دعمهم للنظام (10)، وإما بأعمال خطف وقتل مذهبية نُسبت إلى المعارضة.

طبعاً، الغائب الأكبر عن هذه الصورة هو قسم آخر من المعارضة للنظام، كـ«هيئة التنسيق الوطنية» التي ترفض التدخل الخارجي وتسليح الانتفاضة والحرب الأهلية الطائفية، وتصر على تغيير النظام بالضغط الشعبي الداخلي، وعلى عدم الانتقال بسوريا من محور إلى آخر (11).

2. ب. فلسطين في المخيال السوري على ضوء الانتفاضات العربية

لا ريب في أن كل الانتفاضات العربية كان هاجسها الأول الخلاص من الاستبداد الداخلي. وفي سوريا تحديداً، رأى كثير من المعارضين والناشطين السوريين أن «فلسطين» كانت محض شعار يختبي خلفه النظام السوري ليبرز المزيد من ذلك الاستبداد. وهم لا ينفكون يذكرون بدوره في قتل الفلسطينيين، وشق صفوفهم، واحتوائهم، منذ نشوء الحركة الوطنية الفلسطينية. ولطالما قالوا إن فلسطين ارتبطت في أذهانهم بفرع الأمن الديموي المعروف باسم «فرع فلسطين»، المسؤول الأول عن تاريخ طويل ومتواصل من الاستجواب والتعذيب، معارضون آخرون، أكثر هدوءاً، يقرّون بدور النظام في دعم المقاومة الفلسطينية (واللبنانية)، لكنهم لا يرون أن هذا الدعم يبرز، مثلاً، معض السوريين والتعديس عليهم وقلع أظافرهم. وهم لا يفهمون ما تعنيه كلمة «المانعة» بالضبط حين لا يكون ثمة قتال مباشر، مثلاً، على جبهة الجولان منذ أربعة عقود؛ وحين تعترف الحكومة السورية بالقدس الشرقية عاصمة لفلسطين، بما يعنيه

ذلك من اعترافها أيضاً بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل؛ وحين يعلن أحد رموز النظام (رامي مخلوف) في مقابلة مع الصحافي القدير المرحوم أنطوني شديد أن أمن إسرائيل مرتبط بامن سوريا (12).

في المقابل، يصر أنصار النظام على أن «عيوب» النظام في طريقها إلى التلاشي بفضل إصلاحات بشر «الجديّة»، وأنها في كل الأحوال لا تلمس تاريخه (وتاريخ أبيه وحزب البعث) في دعم الفصائل الفلسطينية «المعادية للتسوية». وهم يردون على المجلس الوطني السوري المعارض بالقول إن قاداته لم يُظهروا أي تفوق على النظام في مواقفهم من إسرائيل ومواجهتها. فنانبة المجلس الوطني، بسمة قضماني، جهرت في 2008، في الذكرى الستين لنشوء الكيان الإسرائيلي الغاصب، وفي حديث (غير مفبرك) إلى التلفزيون الفرنسي، بضرورة وجود «إسرائيل» بشكل مطلق (انسولومان) (13). ورئيس المجلس، برهان غليون، أعلن أن «سوريا الجديدة» ستسترجع الجولان بالمفاوضات (أي بأسلوب الأسدين، الأب والابن، لا غير)، وأنها ستوقف دعمها لحماس (وحزب الله) (14). ومُلمهم الدروبي، من الإخوان المسلمين، وهم فصل أساس في المجلس المذكور، شارك في ندوة في باريس، الصيف الماضي، نظمها برنار هنري - ليفي، «مخلص ليبيا» الذي سبق أن أيد قصف المدنيين في غزة بين نهاية عام 2008 وبداية عام 2009 (15). والمتظاهرون السوريون أنفسهم، كما يبدو، وعلى الرغم من بعض الإشارات القليلة إلى فلسطين، لم يُطلقوا حتى اللحظة اسم «جمعة فلسطين» أو «جمعة التضامن مع أسرى فلسطين» على أي من الجُمع

النظام اللبناني ليس هشاً، وإنما قد يكون أقوى الأنظمة العربية يقوده زعماء محبوبون لدى قسم كبير من طوائفهم

الانتفاضة التي يقدر عددها اليوم بالعشرات. وهو ما يمكن تأويله بأن قيادة المجلس الوطني لا تريد أن تبعت «رسالة خاطئة» إلى المجتمع الدولي.

مع تفاقم الأوضاع في سوريا، تراجع الحديث في الشارع السوري عن فلسطين، وهو أمر متوقع بالطبع. ويُستثنى من ذلك بعض الحالات القليلة من قبيل: (1) تخطيط مقرّبين إلى النظام «مسيرة عودة» ثانية عبر الجولان المحتل في ذكرى يوم الأرض. نذكر بأن مسيرة العودة في العام الماضي قد اعتبرها كثيرون «خطة مبيتة» من النظام السوري لحرف الأنظار عما يرتكبه داخل سوريا، وذلك عبر إعادة «توجيه البوصلة نحو العدو القومي، إسرائيل» (2) سقوط ضحايا فلسطينيين في الأحداث السورية نتيجة للقصف. (3) انضاح مشاركة فلسطينيين في هذه الأحداث، إما إلى جانب النظام، كما في أحداث مخيم اليرموك العام الماضي عقب تشييع شهداء مسيرة العودة، وإما إلى جانب الانتفاضة السورية، تظاهراً وإيواً للفارين وعلاجاً للجرحى. (4) دفع قيام إسرائيل قبل أسابيع بمجازر جديدة في غزة ناشطين سوريين إلى نشر صور عن مجازر حمص وغزة، مذبذبة بشعارات مثل «دم حمص وغزة واحد» و«عذرنا يا غزة بللي فينا مكفينا»، أو من خلال نداءات إسرائيلية «متضامنة» مع السوريين كالتالي أطلقها (باللغة العربية) قبل أيام رئيس الشابات وعضو الكنيست، آفي دختر (16)؛ أو من خلال تفكير بعض الفنانين الإسرائيليين (أركادي دوخين) في إقامة نشاطات غنائية يعود ريعها للمعارضة السورية (17).

خاتمة

من الطبيعي أن يستلهم اللبنانيون والسوريون النموذجين التونسي والمصري للقيام بانتفاضاتهم. المتعزّة في لبنان، والمتصاعدة الدائمة المفتوحة على كل الاحتمالات في سوريا. ومن الطبيعي أن يفكر المنتفضون، هنا وهناك، في التركيز على أولوياتهم المحلية واليومية المستديمة، ولا سيما إذا كان الموقف القومي (والفلسطيني تحديداً) غطاءً لممارسة الاستبداد الداخلي. لكن ما ليس مضموناً هو أن يكون

تحرير فلسطين موجوداً على أجندة الثورات بعد نجاحها في الاستيلاء على الحكم. أحد أسباب ذلك يعود إلى أن القوى الإسلامية التي تنصّر المشهد السياسي في معظم الحركات المنتفضة اليوم ليست كلها ذات تاريخ عريق في دعم فلسطين. وفي هذا الصدد يذكّر صقر أبو فخر أن مجمل ما أرسله الإخوان المسلمون إلى فلسطين في 1948، من أقطار عربية عديدة، كان نحو 400 عنصر فقط من مجموع مليون إخواني في تلك الفترة (18)؛ وأما اليوم فهي هو أبو النعم أبو الفتوح، زعيم الإخوان في مصر، وأحد المرشحين الأساسيين لرئاسة مصر العتيدة، يقرّ، في حديث إلى القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي، بوجود إسرائيل، ويطالب الفلسطينيين بالاعتراف بها، ويتعهد احترام اتفاقيات كامب ديفيد (19). أما راشد الغنوشي، زعيم حزب النهضة الإسلامي في تونس، فينفي أن ينص الدستور التونسي على ما يمنع تونس من إقامة علاقات مع إسرائيل (20). وفي ليبيا ما بعد القذافي، يتعهد مصطفى عبد الجليل، رئيس المجلس الوطني الانتقالي، بعلاقات وطيدة بين ليبيا وإسرائيل. وتكاد كلمة «فلسطين»، كما يقول أبو فخر، «لا ترد في مواقف معظم قادة هذه الانتفاضات إلا لماماً، وبصورة خجولة، أو في سياق الإجابة عن أسئلة الصحافيين» (21).

كل ذلك يحتم على القوى المؤيدة لتحرير فلسطين، وبخاصة في دول «الطوق» العربي، وبالأخص في لبنان وسوريا ومصر، ألا «تؤجل» النضال من أجل القضية الفلسطينية، ولو في الحدود الدنيا التي تفرضها ظروف كل انتفاضة، بحيث لا يتبادى «البراعماتيون» و«الواقعيون» في تجاهل فلسطين إلى أبد الأبد. نعم، ثمة معارضون اليوم يبتزون المنتفضين العرب بـ«الحرية» و«الديموقراطية» مثلما كانت بعض الأنظمة (ولا تزال) تبتز المنتفضين باسم فلسطين!

هوامش

- (1) سماح إدريس، مجلة الآداب، 7-9، 2011، ص 1.
- (2) «الربيع العربي» أكثر من أب، على ما يبدو؛ فإذا كان فريق 14 آذار ينسب إلى ثورة الأرز اللبنانية، فإن السيد حسن نصر الله ينسب إلى المقاومة الإسلامية للدولان الإسرائيلي صيف 2006. وثمة آخرون يعيدونه إلى انتفاضة الحجارة في فلسطين نهاية عام 1987.
- (3) الأخبار، 18 نيسان 2011
- (4) http://www.alraynews.com/News.aspx?id=444848
- (5) لجدير ذكره أن مواقف المجلس الوطني من حركة حماس تغيرت (إيجابياً) بعد اقتراب الحركة من مواقف قطر وتركيا، وابتعادها عن النظام السوري.
- (6) سماح إدريس، الآداب، عدد 4-6، 2011.
- (7) نصري الصايغ، الآداب، عدد 4-6، 2011.
- (8) هذا الجدل يدور أيضاً بين الناشطين في غير انتفاضة عربية اليوم، ولا سيما في مصر وتونس وسوريا. راجع مثلاً استفتاء قام به محمد ديبو لثقفيين وناشطين سوريين، بعنوان «العلمانية المغدورة في سوريا»، الآداب، 10-12، 2011.
- (9) ساري حنفي، الحياة، 7 آذار 2012.
- (10) http://www.firstpost.com/topic/organization/ youtube--video-4IHfeYACIw-33665-1.html
- (11) راجع المقابلة التي أجراها يوسف فخر الدين وناريمان عامر مع عبد العزيز الخيزر، العضو القيادي في «هيئة التنسيق»، مجلة الآداب، شتاء 2012، ص 4، 8.
- (12) "If there is no stability here, there's no way" NYT, May 10, 2011. there will be stability in Israel.
- (13) http://www.youtube.com/watch?v=gDALKkPBYY&fb_source=message
- (14) ونعيد التأكيد أن علاقات المجلس بحركة حماس تغيرت بعد ابتعاد الحركة عن بشار الأسد، واقترابها من قطر وتركيا، ربما بإيعاز من الإخوان المسلمين في مصر خصوصاً.
- (15) http://syria.alsafahat.net/?p=6836
- (16) http://pktube.onepakistan.com/video/Ow-DKDLykkgc رئيس الشابات الإسرائيلي في رسالة وقحة للعرب بالعربي.html
- (17) http://www.haaretz.com/print-edition/news/israel-mulls-charity-concert-for-syrian-insurgents-1.417721
- (18) http://www.assafir.com/Article.aspx?Editid=2040&ChannelId=48445&ArticleId=3166
- (19) http://www.youtube.com/watch?v=EE0H9lfhX6M
- (20) السفير، 3/12/2011
- (21) مصدر سبق ذكره.

* رئيس تحرير مجلة «الآداب»، والمقال هو النص الكامل للمداخلة التي قدمها في مؤتمر «فلسطين والانتفاضات العربية» الذي نظّمته «جمعيّة فلسطين» في معهد الدراسات الشرقية والأفريقية (سواس) في جامعة لندن في 2012/3/17.